

## التربية الخلقية في المنزل

للأستاذ محمد مصطفى عطا

“التوجيه الصحيح لحياتنا الإنسانية هو التوجيه الصحيح للطفولة نفسها” ألفرد أدلر

قبل أن نتحدث عن التربية الخلقية في المنزل يجدر بنا أن ندرس طبيعة الطفل لنخلص إلى توجيهه التوجيه الخلقى القويم .

يخرج الطفل الى هذه الحياة وقد ورث عن نوعه الإنسانى غرائزه وميوله وما يسمى “الوراثة النوعية” كغريزة المقاتلة والخوف والسيطرة والتماك والغريزة الجنسية وحب الاستطلاع.. الخ، وورث أيضا عن أجداده من ناحية أمه أو أبيه الصفات الجسمية والعقلية والخلقية وما تسمى “الوراثة الخاصة” والصفات التى يرثها الجنين عن طريق أمه تكون عن البويضة والتى يرثها من جرمة أبيه تأتي عن طريق اللقاح والتى يرثها عن نوعه تكون عن طريق البويضة واللقاح معا، ولهذا قال مونتاني الفرنسى “يا لها من قوة خطيرة تلك القطرة المنوية الدقيقة التى تتكون منها والتى ينتقل اليها فيها فضلا عن صفات أصولنا الجسمية أفكارهم وميولهم” .

وهنا يمرض سؤال كثيرا ما يتردد فى الخاطر هو : إذا كان الطفل يرث كل هذه الأمور من غرائز وميول وصفات جسمية وعقلية وخلقية فما فائدة التربية إذن ؟  
أجاب فريق من النلاسفة عن هذا السؤال بأن التربية لا أثر ولا شأن لها وأن الوراثة هى كل شئ فى تقرير مصير الإنسان ، ومن هؤلاء أوجست كانت “وشو ونهور” .

ولكن هذا الرأى ثبت بطلانه فالتربية استطاعت أن توجه بعض الفرائز الى ما يفيد الفرد والمجتمع ، كغريزة الخوف اتجهت بها نمو الخوف من الله أو القانون ، وغريزة المقاتلة اتجهت بها نحو المنازلة فى سبيل العرض أو الشرف أو الدفاع عن الوطن .

ولأنه ثبت أن هذه الفرائز والصفات توجد فى الإنسان على شكل استعدادات واتجاهات او كما ينزل المناطقة توجد بالنوة لا بالفعل ، فإذا وجدت ما يساعدها على الاندفاع فى مجراها الخاطىء سارت فى هذا الطريق ، وإذا هى لها ما ينحوها نحو آخر أو يغير اتجاهها أو يقضى عليها لبست طائفة غير مكروهة وسارت فى السبيل السوى وبهذا جاءت الشريعة الإسلامية قال تعالى “وهديناه النجدين” ، وقال “ونفس وما سواها فألممها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاهها وقد خاب من دساها” وقال “إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا” .

إلى أن هذه الصفات الموروثة تكون غير كافية لمواجهة الرقى والمدنية والتحديد المستمر .  
إذا تقر هذا رأياً أن البيئة العامة والمزلية بخلاصة ما آثار بعيدة في حياة الطفل ومستقبله ،  
فكيف إذن نوجد هذه البيئة الصالحة ؟

بالمعرفة وتمسكها معرفة التماثلين بأصرتربية الطفل - من الوالدين والمربين - بنفسانيته  
وميوله واتجاهه ، فكل طفل له اتجاه وميول وصفات تختلف كل الاختلاف عن الطفل الآخر ،  
بل إن الأشخ يخلف عن أخيه في هذه الاتجاهات والميول . فالطفل البكر غير الطفل الأصغر  
والطفل الذي يشب بين أخوات غير الطفل الذي يشب بين أخوة ، والبنات الكبرى غير  
الوسطى غير الصغرى ، فالإلمام بكل هذه الظروف والملايسات والوقوف على هذه الحالات  
وما يلائم كلا منها من علاج يتطلب معرفة بإدنى علم النفس الحديث حتى لا يشب الأطفال  
مرضى بالأعراض النفسية التي تنجم من نشاطهم وتقدمهم في الحياة ، وتكون شراً على المجتمع .

وقد قرأت أخيراً في صحيفة "الاجيشيان ميل" رأياً لكاتبة إنجليزية في - إذا الموضوع  
تعمل على ما يشج التطيم في مدارس البنات بالجملة قائمة : إنه لا يمكن أن تتعلم الفتاة الإنجليزية  
في المدرسة كيف تطهر الطهارة وكيف تنظف الطفل فحسب ، بل يجب أن تدرس نفسانية  
الطفل الذي يطلب منها توجيهه وفق ميوله الطبيعية ليكون وطنياً جندياً بهذا الاسم .

وإذا تهيات لنا هذه المعرفة بالطرق المختلفة أمكننا أن نفرس الفضيلة في نفوس أطفالنا  
وأن نقودهم إلى ما فيه خيرهم وسعادة المجتمع .

ولنعرض الآن لبعض الترائز والميول في الطفل وكيف يوجهها الآباء لتوجيه الصالح  
المفيد . كثيراً ما نرى نحن من الآلام نتيجة جهل آبائنا وأخطائهم ، فكأنما هذا الرجل الذي  
حورب من والديه حرباً عنيفة لأن أحدهما رآه يلعب مرة من المرات مع أن للعب غريزة  
لا تقتصر على النوع الإنساني فحسب بل تمتداه إلى الحيوان ، وهذه الغريزة زودنا بها العلم  
الحكيم لإعداد أجسامنا وعمولنا بل وحللتنا لقيادة المستقبل التي ستجلبها ونحوض غمارها  
وتتطلب منا ميارة واستعداداً ، فالعاب الحركة مثلاً تدرب القوى الحركية في الطفل على القيام  
بوظائفها العامة وبأسهل أنواعها ألعاب الوليد في الشهر الأول من عمره بتترك يديه ورجليه  
في مهده عند ما يشج أو يطمئن ، ومن هذه الألعاب العدو والوثب وقذف الكرة مثلاً .

وبدهى أن الحركات التي يقوم بها الإنسان في أعماله الجذدية لا تخرج عن هذه الألعاب .  
والألعاب النفسية وهي التي تعتمد على قوة من قوى الإدراك "الإدراك" - الملاحظة  
التخييل - التذكر الخ " ونظير في "الألعاب الكشفية والتردد والسطرنج .

وتقوية الخيال تظهر في ألعاب الطاولة بشكل عجيب فالطفل في لعبه يمنح نفسه ما يشاء من القاب ويضيف عليها ما يجب من الهيبة والوقار فتاء يمثل فاضلا يتحكم بين الناس وما الناس الا من على شاكلته من الأطفال - أو خطيبا دينيا يبشرون وينذر ، أو قائدا صريبا يدبر خطط الهجوم والدفاع ، أو زعيما يقود الأطفال الآخرين ، وهكذا لا ينقضي اليوم حتى يجمع العالم في شخصه .

أفلم تكن صادقين اذن عند ما ذكرنا أن الألعاب انما هي امتداد لنا للحياة المستقبلية ؟ بلى ، ويؤيد هذا الرأي العلامة الألماني اذ قال "الألعاب التي تقوم بها صغار كل طائفة من الحيوانات الراقية تشبه الأعمال الجوهرية التي يقوم بها كبارها ، فالحريرة مثلا تثب في أثناء لعبها على الكرة أو على فصاصة الورق التي تمر أمامها كما تثب الهرة الكبيرة على الفأرة ، وكما تثب هي نفسها في المستقبل على فريستها " .

ولأن الإنسان أرق أنواع الحيوان ، وحياته ممتدة بالنسبة الى قسيده كانت طفولته أوسع مدى وأطول زمنا ، وفي هذا المعنى يقول العلامة السالف الذكر "لا يلعب الحية إن لانه طفل ، بل انه لم يكن طفلا الا ليلعب " .

ولهذه الغريزة فوائد أخرى منها ما حدث به الفيسوف الانجليزي "هيربرت سبنسر" من أن اللعب عمل ضروري للطفل يمكن به من "تفريغ" ما لديه من نشاط زائد عن الحاجة . هذه الأهمية التي للعب حمت علماء النفس على أن يقرروا أن الطفل الذي ينشط الكثير للعب المتقل الصاحب هو الطفل الطبيعي السليم ، والطفل الذي نده ، مثال الأدب والطاعة والهدوء طفل مريض محتاج الى علاج .

ومن أجل هذا أوصح للأباء أن يدعوا الطفل يلعب ويلهو كما يشاء وكما يحلو له . وعدم أو مع رفاقه ، إذ الأدب الجمعي أفقر أنواع اللعب على تكثير كلمات فانس الطفل ، وعلى إشباع ميوله من السيطرة والتمتأة والاستطلاع والمحاكاة الخ مما يعود عليه في حياته المقبلة بالفع العميم .

وكما أيضا هذا الرجل الذي أخذ بالشدة والقمع في طفولته من والديه وصربه مع أن هذه السياسة لا تنتج إلا بلاءة الطفل أو مرضه بأعراض عصبية أو تبرده ، وكثير من شبابنا العصبيين أصابهم هذا المرض في وقت طفولتهم من جراء هذه السياسة ، بل أنها تتجاوز هذا الحد فيصاب الطفل بالهذلية النفسانية أو ينسد من الناحية الجينية .

(١) المصدر السابق ص ١٩

(٢) ص ٢١

وانظر ما قرره الدكتور "أنفرد أدلر" بهذا الصدد قال "ومن أكبر المؤثرات في عقل الطفل شعور الفصح الناشئ من إفراط الأب أو الأم في العقاب أو السب، وهذا الأثر يدفع الطفل الى العمل على التخلص من هذا التمتع بالعلوية النفسانية. ولذلك فإن بعض البنات اللاتي يكونن آباءهن سرىعى الغضب . تتكون لهن مدل أولى تصد عن الرجال لأن هؤلاء الرجال كانوا سرىعى الغضب ، وقد تصد عن النساء الأولاد الذين تميمهم أمهاتهم القاسيات ، ويعبر الأبناء عن هذا الصمد بطرق مختلفة ، فقد يصبح الظلام منلا نخبولا ، وقد يفسد من الناحية الجنسية (١) .

ويتصل سياسة الأرحاب سياسة التخويف وكثيرا ما نشهدهما في منازلنا ونسمع الأميات يخوفن أبناءهن عند صياحهم أو بكائهم أو تنويمهم "بأبي رجل مسالوخة ، وأبي شوال ، والمارد" .

أو يأتين بأصوات غريبة حتى يسكن الطفل ويقطع أنفاسه وربما كان بكائه لآلم أو ضيق .

وهذه السياسة القادرة أخطر سياسة على العاقل فهي تتابعه بطابع الجبن والخور، وتشمع فيه التردد والضعف فيخذي السير في الظلام أو صعود السلم في الليل ويرعد من الحشرات أو الفيران أو كما يقول العامة "يخاف من خياله" .

أما تقيض سياسة الشدة وهي سياسة تدليل الطفل فلا تقل خطارا عن السياسة الأولى ، فتلك سياسة الإفراط وهذه سياسة التفریط .

الطفل المدلل هو الطفل الدائم الصراخ والبويل إذا لم يجب إلى مطلبه أو مسه طفيف من أذى ، ومن يصدق عليه قول الشاعر .

خطرات النسيم تفرح خديه      ولمس الحرير يدعى بنانه

والطفل المدلل إذا أجيبت له رغباته في المنزل فكيف يفعل في لعبه مع الصغار ؟ بل كيف يفعل حين يواجه واجبات المدرسة ؟ بل ماذا يصنع عندما تواجهه مشكلات الحياة ؟

التربية الحقيقية هي التي تزود الطفل بدميات تكون عده للتعاب على صحاب الحياة كالاتحاد على النفس والثقة بها والتحكم فيها وضبطها ، ولقد "كان جان جاك روسو" على حق كبير عندما نادى بأن الغرض من التربية تزويد الإنسان بما يستطيع منه مكافحة الحياة بقوة وصلابة وشدة وأن تقوى ذاتيته الى أبد الحود .

وسبيلنا الى التربية الاستقلالية أن ندع الأطفال للطبيعة فلا نعينهم في دشيم ولا نأخذ بيدهم وبالرغم من أن هذا العمل يساهم الاعتماد على نفسه فإنه يعوق نموه ، وأن نستغل نشاطه إذا كبر بعض الشيء ، بإشراكه في تدبير بعض شئون المنزل مما يشعره ببعض التبعة

ونستميله الى الصل النافع ، وأن ندعه يقوم بحل لعبه وتركيبها من غير أدنى مساعدة ؛ فعن اخفاقه ينبعث نجاحه ، ومن محاولاته يكتسب دربة وخبرة .

وأحذر الآباء والأمهات من الغلو في التماق بأبنائهم والحنو عليهم فينادونهم في كبرهم بأسماء الطفولة ، ويفرحونهم في فراشهم عندما يحين نومهم ، ويساعدونهم في ما بينهم وما كلهم ويكثرون من احتضانهم وتقبيلهم مما يودي بروح الاستقلال وبقضى على ما فيه من صمة الاقدام وركوب الخطر في سبيل عيشه أو وطنه .

وعلى تقوية الذاتية قامت مذاهب في التربية الحديثة كذهب "دكرولي" وطريقة "دالتون"

وبيت الأطفال في إنجلترا الآن يسير على ضوء هذا المبدأ الرفيع .  
وأصح للآباء الذين يرون في أطفالهم عادة الصراخ والشكوى من كل أذى تافه أو مطلب عسير المنال أن يتجاهلهم في هذا الوقت ولا يجيبوهم الى مطالبهم وأن يلتقوا اليهم بكلمة تشجيع عندما يرونهم يخطون مناعب هينة .  
وعليهم أن يربونهم على الحشونة في الملابس والمنام والمأكل ، فالأيام دول والزمن متقلب والنعمة لا تدوم ، وما أسى قول النبي عليه السلام "أخشوشوا فإن النعمة لا تدوم" .  
حقا فإن النعمة لا تدوم ، وقد أرتنا الحرب العالمية الأولى والثانية أثر الغارات الجوية في المساكن والمناجر وضياح معالم الكثير منها وبخاصة في البلاد التي كانت ميادين لماتين الحربين .

الى أن الحشونة تمهد السبيل لحياة البلدية والانطباع بطابع الرجولة .  
وقد زود الطفل بنزيرة حامية هي تمريرة المحاكاة أو التقليد ، وشاءت القدرة الالهية أن تقصر ميل الطفل التقليدي على محاكاة الأعمال المتوافر فيها أحد الشرطين الآتين .  
١ - أن يكون من شأنها تدريب قواه الوراثية على القيام بوظائفها .

٢ - أن تكون صادرة من أشخاص تربطهم بالطفل رابطة عاطفية أو يشعر أنهم أرق منه ، ولا شك أن أرق شخصية في محيط الطفل المنزل : الأب أو الأم ، ومن هنا كانت المسؤولية الملقاة على عاتق الآباء جسيمة وعظيمة ، فكل ما صدر عنهم من أعمال أو فاهوا به من ألقاظ يحاكيها الطفل إن عاجلا أو آجلا ، لأنها في مذهبه وأفته تكون أرقى الأعمال وأنبيل المعاني وأجمل الألفاظ فوالد الطفل هو بطله الذي يرى فيه فوقاً وجاذبية ولم لا ؟ أليس في نظره على الأقل هو المسيطر على المنزل : الكبير فيه قبل الصغير ؟

فليس من العيب إذن أن يطالب المصلحون الآباء بأن يكونوا أسوة حسنة لبنيهم فتحلوا بالأخلاق الناضجة ، ويتعدوا عن الرذائل كالتسوية والإهمال والاسراف والكذب والغش في المعاملة وعدم احترام حقوق الجار ، وكثرة السب والشتم واحتساء الخمر أمام بنيهم إذ كل ذلك سينطبع في نفوس أبنائهم ؛ وما أحكم عتبة بن أبي سفيان في كتابه الذي

أرسله إلى معلم والده حيث قال "ليكن أول ما تبدأ به من إصلاح بني إصلاح نفسك، وإن أعينهم معقودة بعينيك، فالحسن عندهم ما استحسنت والتبجح ما استمبجت".  
وكما أن الطفل يرى البطولة في والده كذلك يرى فيه الصديق الأول ويجسه ويشق به ويفضى إليه بذات نفسه ويستمد منه النصيح والإرشاد، فإذا لم يبادله عطفاً يعطف اضطرب الطفل إلى أن يبحث له عن صديق آخر وفي هذا كل الخطورة على حياته الحقة.

وعلى الوالد أن يستغل فرصة هذه الصداقة وليقنه الفضائل عن طريق النصيحة أو ما يترن بأدائها من سعادة وحب والندبة، فهذا التلقين يميل الطفل على التمدق ونسوك سبيل الفضيلة فالعاني أموات الأعمال كما يتولون.

ومما نوصى به الآباء أن يعنوا العناية التامة بتغذية أبنائهم التغذية الكاملة وأخذهم حظهم من النوم المادى المرشح وتدفيئتهم التدفئة التي تنميه عوارض البرد حتى ينمو جسم الطفل نمواً كاملاً فلا يعاب سلوكه بقعدة النفس التي تسبب له متاعب حمة في حياته المقبلة، وقد عرّف أدلر ثلاث حالات كل منها تسبب للطفل معاكسات شتى وتكون أعمس من غيرها في التقويم والهلاج وهي: النفس الجسمي وتلبيد الطفل وبفضه من الأقرين.

ولا يتعمر هذا النفس الجسمي على السلوك الأخلاقي بل يتعداه إلى العقل أيضاً، والحق أن النزاحى الثلاث يرتبط بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً ويتأثر بعضها ببعض تأثراً عميقاً، وإن كانت الناحية الأخلاقية أبرز النواحي الثلاث، فالطفل القويم الخلق هو ذو العقل السليم والجسم الصحيح أو بالأحرى هو الطفل الاجتماعي الذي يؤتم بينه وبين أساليب الحياة الصحيح الوضع المستقيم لاتجاه.

وإني أظالم الآباء بأن يجعلوا من منازلهم آيات للفن والجمال وحسن التنسيق، فلا تقع العين فيها إلا على كل رائع جميل، نطاقيات الزهر، والصور الناطقة يجب أن يكون لها مكانها من المنزل حتى تربى في الطفل حاسة الذوق وعاطفة الجمال.

مما تقدم نرى أن المنزل له عميق الأثر في توجيه سلوك الطفل إلى أن يشب عن الطوق ويصبح رجلاً ذكياً، فهو المدرسة الأولى وهو المرجح الأول، وفيه يقضى الطفل أكثر أوقاته حتى بعد ذهابه إلى المدرسة وفيه تظهر دور له طبيعياً في غير تصنع أو تكلف، فإذا وجه الآباء عنايتهم إلى منازلهم فقد أدوا رسالتهم كما ينبغي وتكون قد أعددتنا جيلاً ربي على الطموح وثرة العزيمة والاستقلال في الرأي والإمارة والشجاعة والمكبرة وضبط النفس فيمنح بالوطن إلى ما نرجوه من قوة وسيطرة واستعلاء.

شهد مصطفى عطفاً

أستاذ التربية وتربية النفس في برقه